اضواء على شخصية شكر الشريف بن هاشم

أحد أبطال الملحمة الهلالية

الدكتور فائق أمين مخلص

قصة الشريف والجازية واحدة من الحكايات الكثيرة التي تسردها لنا السيرة الهلالية • والقصة تروي لنا جانبا من جوانب الهجرات العربية الى شمال افريقيا ، وهي باشكالها المختلفة ورواياتها المتعددة تعكس لنا مظاهر معينة من حياة البدو واخلاقهم ومثلهم وتطلعاتهم[1] •

وشخصيات القصة بطبيعة الحال تلعب ادوارا مخالفة للواقع التأريخي وهي لهذا السبب لاتصلح ان تكون وثيقة تاريخية لتلك الحقب •

ويعتبر ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ أقدم مصدر لهذه القصة [2] فقد سجّل بعضا من حوادثها وجانبا من الاشعار البدوية المتصلة بها • ويروي ابن خلدون قصة الشريف على الوجه التالي :

«ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم الى افريقيا طرف في الخبر ، يزعمون ان الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن ابي الفتوح وانه اصهر الى الحسن بن سرحان [3] ـ اخته الجازية فأنكحه اياها وولدت منه ولدا واسمه محمد وانه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة واجمعوا الرحلة من نجد الى افريقيا وتحيلوا عليه في استرجاع هذه الجازية فطلبته في زيارة ابويها فأزارها اياهم وخرج بها الى حللهم فارتحلوا به وبها وكتموا رحلتها عنه وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة الى ان فارق موضع ملكهم وصار الى حيث لايملك امرها عليهم ففارقوه فرجع الى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبّها داء دخيل ، وانها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفة الى ان ماتت من حبه ويتناقلون من اخبارها في ذلك ما يعفي عن خبر قيس وكثيّر

---

(١) انظر الهلالية في التاريخ والادب الشعبي ، عبدالحميد يونس (القاهرة ١٩٥٦) ص٧٧ وما بعدها .

(٢) راجع الادب القصصي عند العرب ، موسى سليمان . ص ٨٧ .

(٣) كان من رؤساء قبيلة دريد الهلالية التي استوطنت تونس . أنظر تاريخ العبر ، ابن خلدون ، طبعة بولاق ، حـ٦ ص ١٦ .

ويروون كثيرا من اشعارها [٤] .

ثم يذكر ابن خلدون بعد ذلك : «ومن مزاعمهم (أي الهلاليين) ان الجازية لما صارت الى افريقيا وفارقت الشريف خلفه عليها منهم الماضي بن مغرب من رجالات دريد ، غاضبة بعد فترة ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه فقامت عشيرة ماضي بن مقرّب معه وقاتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته وثارت الفتنة بينهم ، وقتل فيها الحسن بن سرحان واستمرت العداوة بينهم الى ايام الموحدين [٥] » .

وقد يكون من الجائز ان قصة الشريف كانت صحيحة في اصلها ولكنها تعرضت للزيادة والتحريف عبر الازمان الطويلة خاصة وانها ظلت تتناقل قرونا عديدة عن طريق الرواية فلعبت بها اهواء الرواة فغيروها واخرجوها عن اصولها التاريخية .

والحق اننا لو عدنا الى التاريخ لوجدنا الشريف شخصية تاريخية وانه حكم مكة في الفترة التي وقعت فيها هجرة الهلاليين المشهورة . والمعلومات التي يقدمها ابن خلدون عن هذا الشريف مضطربة متناقضة فهو لم يحاول نقد ما جاء في كتب التواريخ ولا أن يثبت شيئا منها . وقد يستنتج من هذا ان ابن خلدون لم يكن واثقا من صحة الاخبار التي ينقلها في هذا الشأن فهو يقول في معرض حديثه عن الشريف : «وهذا الشريف الذي يشيرون اليه (يعني في قصصهم) هو من الهواشم وهو شكر بن ابي الفتوح الحسن بن عبدالله بن ادريس ، وابو الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة ايام الحاكم العبيدي وبايع له بنو الجراح امراء طيء بالشام وبعثوا عنه فوصل الى احيائهم وبايع له كافة العرب ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع الى مكة وهلك سنة ثلاثين واربعمائة فولى بعده ابنه شكر هذا وهلك سنة ثلاث وخمسين (واربعمائة) وولى بعده ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون انه من الجازية هذه وتقدم ذلك في اخبار الدولة العلوية هكذا نسبه ابن حزم . وقال ابن سعيد هو (أي الشريف) من السليمانيين من ولد محمد بن داود بن حسن بن الحسن السبط الذي بايع له ابو الزاب الشيباني بعد ابن طباطبا ويسمى الناهض ولحق بالمدينة واستولى على الحجاز واستقرت امارة ملكه في بنيه الى ان غلبهم عليها هؤلاء الهواشم جدا قريبا من الحسن والحسين ، واما هاشم

---

(٤) العبر حـ ٦ ص ١٨ .

(٥) نفس المرجع حـ ٦ ص ١٩ .

الاعلى فمشترك بين سائر الشرفاء فلا يكون مميزا لبعضهم عن بعض[1]» .

ويذكر ابن خلدون في مكان آخر من تأريخه ان خروج العرب من نجد انما كان على عهد المستنصر ، أي بعد ان مضت خلافة العزيز والحاكم والظاهر[2] ، وابين من هذا التناقض ان ينص ابن خلدون على ان العزيز هو الذي استقدم بني هلال وبني سليم الى مصر لبعدهم عن مشايعة القرامطة في اغاراتهم على مصر ، ثم يقول في القصة انهم اجمعوا الرحلة عن نجد لمغاضبة وفتنة بينهم وبين شكر . ثم ان ابن خلدون يذكر ان هؤلاء العرب قد فارقوا بلادهم الى مصر ثم انتقلوا الى افريقيا . ولكن القصة[3] تشير الى انهم فارقوها الى افريقيا مباشرة ولم تشر الى نزولهم مصر . واخيرا تذكر القصة ان شكرا قد اعقب ولدا اسمه احمد أو محمد من الجازية وانه قد اخذ الامارة من بعده ، ولكن ابن حزم يشير صراحة الى ان شكرا هذا لم يولد له وان أمر مكة صار من بعده الى عبد كان له . ان ابن خلدون نفسه يذكر في الكلام عن دولة الهواشم ان الذي تولى من بعد شكر سنة ٤٥٤ للهجرة انما هو محمد ابن جعفر وقد خطب للمستنصر العبيدي[4] . ونحن واجدون كثيرا من الخلط فيما كتبه ابن خلدون عن هذه القصة ، فهو بالرغم من عدم ثقته بها واطمئنانه اليها لم يعن العناية الكافية بتمحيصها والتثبت من روايتها[5] وجائز جدا ان يكون الهلاليون قد اصطنعوا المغاضبة مع الذين كانوا تحت امرته من الهواشم بعد ما تهيأت لهم الفرصة في الرحيل الى بلاد المغرب ، حيث لم يسمح لهم شرفهم بترك ابنتهم الجازية في بلاد سيرحلون عنها ، فلما جاء القوم من بعده وتناولوا القصة بالحكاية بعد ان نزلوا مصر ثم رحلوا عنها الى افريقيا ذكروا ولده الشريف باسم «شكر» الذي كان موجودا لذلك العهد وعلى هذا كثر ذكره في قصصهم واشعارهم[6] .

وهناك رواية ضعيفة اخرى يذكرها ابن خلدون وهي تعكس لنا وجهة نظر الهلاليين الذين عاصروا ابن خلدون ، يقول ابن خلدون : «واخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد انه وقف على بلاد الشريف شكر وانها بقعة

---

(٦) العبر حـ٦ ص ١٨ ، ١٩ .

(٧) ابو زيد الهلالي ، محمد فهمي عبداللطيف ، مطبوعات سلسلة اقرأ ، ص١٩ .

(٨) راجع القسم الاول من تغريبة بني هلال .

(٩) أنظر محمد فهمي عبداللطيف ص١٩ وما بعدها .

(١٠) قارن عبد الحميد يونس ص١٢٩ — ١٣٠ .

(١١) انظر ابو زيد الهلالي ص ٢١ ، ٢٢ .

من ارض نجد مما يلي الفرات وان ولده بها لهذا العهد والله أعلم[٧] » .

وصفوة القول فان الشريف شكر زوج الجازية الهلالية قد تولى امارة مكة من عـام ٤٣٢ـ٤٥٣ وهو شكر الملقب بتاج المعالي ويكنى ابا عبد الله وعرف عنه انه جمع في ملكه بين مكة والمدينة بعـد ان غلب على بني الحسين ولم ينجب ذكورا يتولى احدهم الامارة بعده . وقيل ان الذي خلفه عبد له[٨] . ويستفاد من هذا النص ان شكرا لم ينجب ابنا اسمه محمد او احمد من الجازية او من غيرها ، ومن المجمع ان الفرع الموسوي ينتهي به .

وقد عيّن صاحب اليمن المعروف بالصليحي على مكة عام ٤٥٥هـ أباهاشم محمد وبه تبدأ دولة الاشراف الهواشم . وواضح ان هذا ليس ابن شكر ولكنه يتصل به في شجرة النسب[٩] .

ويؤكد الدكتور عبد الحميد يونس ان ولاية شكر استغرقت فترة من اهم فترات التغريبة ولكننا لانستطيع ان نجزم بصحة التفصيلات التي اوردتها سيرة بني هلال والتي سلم بها ابن خلدون[١٠] .

ويستخلص الباحث مما سبق امرا مهما وهو الوجود التاريخي لشخصية الشريف شكر وانه حكم مكة في فترة قريبة جدا من الزمن الذي وقعت فيـه هجرة الهلاليين من مصر الى ليبيا وتونس .

وقصة الشريف شكر بن هاشم ـ كما يقدمها ابن خلدون ـ تتفق من حيث الخطوط العامة مع جميع روايات السيرة الهلالية المصرية . وهـذا الشبـه والاتفاق يؤكد لنا صراحة قدم العلاقة بين مرويات القصة الهلالية وبين الذي احتوته كتب السيرة الهلالية في الاعصر المتأخرة .

وخلافا لما ذكرنا آنفا يقص علينا الناس في شمال افريقيا قصصا واشعارا مختلفة عن هذا الشريف . هذه القصص الافريقية تحكي لنا جميعها ان شكر

---

(١٢) العبر حـ٦ ص١٩ .

(١٣) راجع احمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيـان امراء البلـد الحرام القاهرة ، ١٣٠٥ هـ . ص١٦ .

(١٤) المرجـع السـابق ص١٨ . قارن ابن الاثير ، التاريخ حـ٩ ص٤٢٢ ، ج١٠ ص١٩ ، ٣٨ . قارن ايضا عبدالحميد يونس ص١٣٠ .

(١٥) راجع Bel, La DJAZIYA, Paris, 1902 ص٦٣ وما بعدها .

١٦ـ جمعت هذه القصيدة في صفاقس بتونس وهي تمثل لونا من الوان الشعر الشعبي القصصي الذي يسميه التونسيون « قسيم » وتقع القصيدة في ثلاثة وثمانين بيتا . وقد نسبها معظم الرواة هناك الى الشاعر الشعبي التونسي ملاّك الذي عاش في بداية القرن التاسع عشر .

بن هاشم كان شخصية افريقية وانه كان حاكما لتونس .

وملخص القصة[11] كما تتناولها قصيدة طويلة يتناقلها بنو ازناس وهي قبيلة عربية تسكن في الاصقاع القريبة من تلمسان في الجزائر ، ملخصها يجري كما يلي : ان الشريف كان حاكما لتونس حينما جاء الهلاليون الى بلاده بعد ما عانوا من الجوع والقحط في ديارهم . وقد اشترط الشريف ان يتزوج الجازية أجمل امرأة هلالية والتي كانت مخطوبة الى البطل الهلالي ذياب ، مقابل السماح للهلاليين بالبقاء في بلاده . وتتم الزيجة ولكن الهلاليين بعد حوادث طويلة يسترجعون الجازية من الشريف عن طريق الحيلة والمكر والقوة .

ولعل من المفيد ذكر بعض هذه الابيات التي يتناقلها بنو ازناس في الجزائر كدليل على موضوع القصة ثم على لهجة اقليم بني شجران الواضحة المفهومة :

انا حشمتكم تدوا لي هذا الوجاب ... ليها تروحوا يازينين الخيل
النجع راه .گبّل خشم العقاب ... انا بكيت عادم والزاد گليل
كفركة الهلاليين اتفركوا ذياب ... راحوا شوار تونس گصدوا المكيل
سبع سنين ماناضى عشب غير التراب ... المال ما ولّد معدوم من السيل
ساگوا لطاعة ابن هاشم مثل الذباب ... گوّي الشروط كشفاف النجع هايل
ارتد في شروطه وكتب واحد الوجاب ... نبغي جازية ما فيها تختيل
باتوا بغيض والهم وحزن مع الكراب ... الشر هرّس گرون رجال اتصيل

ونحن نلحظ عين الحوادث التي قصتها الابيات السابقة في قصيدة اخرى جمعها البحث في مدينة صفاقس بتونس . والقصيدة طويلة تبدأ بمقدمة تتحدث عن خطوبة الشريف للجازية ومعارضة الجازية لهذه الخطوبة في بادىء الامر حيث تقول له :

يالو تعطى خزنتك ملآنة ... وتعطى ألف وصيف وألف بعير
اعطاها ربي بالدرك والهانة ... يبس وطنها من گلة التمطير
نجع هلال كي صوّبت فرسانة ... لشور تونس على خيول تسير

وبعد ابيات نأتي الى صلب الموضوع حيث زواج الشريف حاكم تونس من الجازية :

صبحت هـي بالضنـا عيـانه　　خطبهـا خـذاهـا الشيء بالتيسير
ثمّه الشـريف بعث ليـه اعـوانه　　جـابت ولد في افخر التصـوير[1]

ومما يجدر ملاحظته حول هذه الاشعار الافريقية المحلية انها تجعل مشاهد القصة كلها في شمال افريقيا وهي بهـذا تبتعد الى حد ما عن الخطوط البارزة التي سجلها ابن خلدون عن القصة ، وعلى العكس نجد السيرة الهلالية المصرية تتفق في كثير من الامور مع ما جاء في ابن خلدون [2] .

١٧ـ راجع القسم الاول من تغريبة بني هلال .

تحليل علمى دقيق للواقع الاجتماعى الاقتصادى. ولكن سرعان ما اتسع مدلول الاشتراكية بفضل فوريية وبرودون ولويس بلان معبرا عن التطلع الى نوع جديد من النظم الاجتماعية يقوم على مفهوم اقتصادى واجتماعى لحقوق الانسان واعطاء تلك الحقوق النظرية أبعادا حقيقية أى أنها بدأت تتجاوز مرحلة الفكر الواسع والمضمون الديموقراطى التحررى الذى نادى به فلاسفة القرن الثامن عشر وتتخطى الاطار الاصلاحى الاخلاقى المثالى المؤمن بالسعادة البشرية والكمال الانسان والذى يكتفى بالتعبير الفلسفى والادبى الذى ينثر الافكار المضيئة ويشيد المدن الفاضلة التى تصوغها الاحلام المحلقة في الآفاق النظرية المجددة .

ولكن الاشتراكية على ضوء تجربة الثورة الفرنسية الكبرى والدروس المستفادة من ثورتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ اللتين عبرتا عن الصراع بين المحاولات اليائسة للفلول الاقطاعية لاسترداد السلطة والمقاومة الصلبة للبورجوازية الصامدة التى قضت حتى على الصورة الرمزية للكيان الاقطاعى وشيدت جمهورية ديموقراطية وكرست مبدأ الانتخاب المباشر كحق لكافة المواطنين ولكن رئيس الجمهورية المنتخب بطريقة شعبية لاول مرة في تاريخ أوروبا تآمر بنفسه على النظام الديموقراطى النيابى وشيد نظاما استبداديا فرديا تحطم في نهاية على صخرة هزيمة عسكرية خارجية قوضت الحكم الديكتاتورى وأقامت الطبقة البورجوازية التى عانت الويل تارة من فلول الاقطاع وتارة من الاطماع والمغامرات الفردية نظاما ديموقراطيا مستقرا قائما على دعائم وطيدة في ظل الجمهورية الفرنسية الثالثة (١٨٧٠) كل هذا الصراع السياسى النابع من التناقضات الاجتماعية أخرج الاشتراكية من ميدان الفكر النظرى المنعزل الى مجال الحركة العلمية الجماهيرية المعبرة عن ذلك الفكر في صورة مصالح حقيقية مما دفعه الى التطور والتعمق في العلاقات الانسانية على أساس ماهو كائن فعلا وليس على أساس التصور التجريدى وجددت المشكلة الاجتماعية الحادة الناجمة من الصراع الطبقى من الجانب الاخلاقى الزائف أى نبذ الاعتقاد السطحى بأن رفع المستوى الاخلاقى للافراد يقضى تلقائيا على المظالم الاجتماعية أى أن اصلاح الفرد يؤدى الى اصلاح المجتمع وبالتالى كشفت المغالطة النظرية التى تقول بأن تجرد الاغنياء من أنانيتهم وعطفهم على اخوانهم الفقراء يؤدى الى قيام المجتمع السعيد لان الاعتماد على أريحية الاقطاعى ونبل أخلاق البورجوازى وشهامته التى ربما تدفعه الى التنازل ظاهريا عن بعض